

رحيل العلامة الكبير والوصوفي المتبتل

الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله



وعلى امتداد السنوات التي عاشها العلامة عبد العزيز بن عبد الله، شغل عدة مناصب سامية، واختير عضواً في العديد من المؤسسات العلمية الأكاديمية، ومن خلال هذه المواقع استطاع العلامة عبد العزيز بن عبد الله، أن يقدم خدمات جليلة لقضايا إنسانية، وسمحت له هذه المراكز بالتعريف بالحضارة العربية الإسلامية، وفي هذا الباب تحمد جهوده الكبيرة التي بذلها في سبيل خدمة اللغة العربية، خاصة سنوات رئاسته المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ومركزه بمدينة الرباط، حيث أعد وأشرف على إخراج العديد من المعاجم العربية تحيط بمجالات معرفية مختلفة، كمعجم السماكة والأسماك، معجم النبات والزهور، معجم الأطعمة، معجم الحرف والمهن، معجم الألوان، معجم الطيران، وغيرها من المعاجم.

ولمقدرته العلمية وكفاءته الأكاديمية، اختير عضواً في العديد من المجامع العلمية، منها: المجمع العلمي العراقي ببغداد، مجمع اللغة العربية بالأردن، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المجمع العلمي الهندي، أكاديمية المملكة المغربية، وغيرها من المؤسسات العلمية والجمعيات العالمية.

ونظراً لهذا الإشعاع العلمي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، ولاتساع معارفه ونضج خبرته، وجهت إليه دعوات عديدة من جامعات ومؤسسات علمية دولية لإلقاء محاضرات، نذكر منها محاضراته بموسكو سنة 1972 حول «مستقبل لغة القرآن» وأخرى بجامعة «هالي» بألمانيا الشرقية سنة 1972 حول «مستقبل اللغة العربية»، وحاضر في جامعة كراتشي والمعاهد الإسلامية في «لاهور» سنة 1970، وكذا في كلية الشريعة في عمان، والمعهد الإسلامي ببيروت، لبنان، ومعهد الدراسات العربية بالقاهرة..... وباعتباره خبيراً دولياً، شارك في العديد من المؤتمرات المهمة بالقضايا الفكرية والحضارية، نذكر منها مشاركته في مؤتمر «بنوك الكلمة» في كندا ونيويورك وموسكو، ومؤتمر علماء الاجتماع في هامبورغ سنة 1960، ومؤتمر عالمي حول «الإسلام وحقوق الإنسان» ببانكوك بإشراف اليونسكو، ومؤتمر تعريب العلوم في ماننستر سنة 1977، وغيرها من المؤتمرات العالمية كل ذلك يكشف عن تنوع وغنى المسار العلمي للعلامة عبد العزيز بن عبد الله.

وهذا الأمر يدفعنا إلى التساؤل عن حجم خزانة هذا العلم، وقد أتيت لي ذات مرة، الاطلاع على جانب منها بمنزله رحمة الله. إنها خزانة تجمعت لدى هذا العالم الفذ على مدى عقود من الزمن، ورغبة منه في تحقيق الاستفادة، قرر وضعها بين أيدي الباحثين من طلبة وأساتذة الجامعة، فقدمها هدية إلى جمعية رباط الفتح، التي يعتبر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله أحد أعضائها

فقد المغرب والعالم العربي والإسلامي، عالماً مغربياً كبيراً، ووصفياً متبتلاً، ووطنياً صادقاً، هو العلامة الكبير الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله.

اختاره الله إلى جواره ليلة ذكرى ميلاد أفضل الأنبياء والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كان رحيله ليلة عيد المولد النبوي الشريف مناسبة دالة على روحانية هذا العلم، ومرتبته الصوفية العليا، فاضت روحه ظهيرة يوم السبت 11 ربيع الأول عام 1433 هـ الموافق 4 يرباير 2012م، ليصلى عليه ظهر يوم الأحد 12 ربيع الأول 1433 هـ بضريح الولي الصالح سيدي العربي بن السايح بالمدينة العتيقة بالرباط في محفل مهيب، ثم يوارى جثمانه الطاهر بمقبرة الشهداء بنفس المدينة إلى جوار الشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

كانت حياة هذا العالم الكبير، مليئة بالعطاء العلمي الرصين، الذي يمكث في الأرض وينفع الناس، وكان رحمه الله مشاركا في مجالات معرفية متعددة ومتنوعة. ويعتبر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله بحق، مفخرة للمغرب، ورمزاً من رموز تاريخ الثقافة المغربية خلال القرن العشرين وبداية الحادي، ويكفي إلقاء نظرة سريعة على إنتاج هذا العلم، لتتضح قيمة الخدمات الجليلة التي قدمها الراحل للفكر المغربي المعاصر، على مدى سبعة عقود، بدءاً من سنوات الأربعين من القرن العشرين إلى العقد الأول من القرن الحالي. وقد اغتنت الخزانة المغربية بالدراسات القيمة التي أنجزها العلامة عبد العزيز بن عبد الله، وخاصة في مجال الحضارة المغربية والفكر الإسلامي، مما أسهم في التعريف بأوجه متعددة من ثقافتنا المغربية. ولا يمكن لهذه الورقة أن تحيط بمجمل إنتاج هذا الرجل، فذلك أمر يتطلب جهداً جماعياً، وزمناً غير يسير للإنجاز؛ لكن نهدف من خلال هذه العجالة إلى تقديم إشارات عامة توميء إلى الأبعاد المعرفية التي تحرك داخلها إنتاج الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله بمؤلفاته التي تعد بالعشرات، وقد كتب باللغتين: العربية والفرنسية، ومنها ما طبع، وظل الكثير منها مخطوطاً.

كما تميزت دراسات الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله بتشعبها، فقد كتب في التاريخ المغربي العام، والفكر الإسلامي، والفن المعماري، والقضاء المغربي، والفكر العلمي عند علماء المغرب، والطب والأطباء بالمغرب، لكن تركيزه على الثقافة المغربية لم يمنعه من الالتفات إلى مجالات دراسية، خارج هذه الدائرة، فكتب عن «العلاقات بين المشرق والمغرب»، واهتم بالقضية الفلسطينية بل إنه أسس مجلة تحمل اسم القدس، تصدر باللغة الفرنسية، قصد من ورائها تعريف الأخر بشريعة هذه القضية ومركزية القدس داخلها؛ دون أن ننسى أن الراحل من المبدعين المغاربة الأوائل الذين اقتحموا مجال الكتابة القصصية.

المؤسسين، فخصصت لها جناحاً كبيراً داخل مقرها، وفتحتها للمهتمين والباحثين. وهذا عمل جليل، حفظ تراثاً علمياً قيماً من الاندثار، والعبت الذي مس بعض الخزائن الخاصة التي عبثت بها الأرضة، أو ضاع محتواها بشكل من الأشكال.

ونظراً لهذا الشغف العلمي، والخدمة الجليلة التي قدمها هذا العالم الصوفي للثقافة المغربية على مدى عقود من الزمن، فقد حظي منذ السنوات الأولى من مسيرته العلمية بتقدير مولوي سام، تمثل في رسالة ملكية كريمة، حملت جواب الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله، وهو ولي العهد يومئذ، في طيه تنويه وشكر وتشجيع وإطراء للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله؛ قال حفظه الله: «لقد تلقينا بمزيد السرور نسخة من كتابكم الذي يحمل عنوان: «مظاهر الحضارة المغربية»، فراقنا عندما تصفحناه، ما يطرق من مواضيع في شتى الميادين السياسية والاقتصادية والفنية والدينية والاجتماعية، كما أعجبنا بما أتحت به من صور من صميم البلاد المغربية، وبالجملة، فقد كان له في نفوسنا الأثر الطيب والمكان المرموق، ونحن إذ نشكركم وافر الشكر، نوجه لكم تشجيعنا، وندعو لكم بالتوفيق والمعونة، ونطلب الله أن يكثر أمثالكم الذين يعنون بحضارتنا المغربية ويظهرونها للملأ على صورتها الحقيقية. دام النجاح حليفكم، والسلام».

هذه شهادة ملكية تلقاها العلامة الجليل الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله سنة 1958، ونعم الشهادة! رحم الله الفقيد وأسكنه فسيح جناته.